موقع الأيديولوجيا من المناهج النسقية في مدونة النقد الأكاديمي الجزائري المعاصر.

Is there an ideology in systematic curricula in the contemporary Algerian academic criticism?

بوزيان بغلول
الرتبة: ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة الجزائر 2 "أبو القاسم سعد الله"
bouziane.01.loul@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/04/25	2022/07/03	2022/07/30

Abstract: Our study pays attention to the structural approach, an analysis and an epistemological discussion, benefiting from logical evidence from the Code of Cultural Criticism, on the assumption that in this approach (narrative structure) what qualified him to know the lion's share in academic criticism, and with its approaches to structural approaches such as semiotics and stylistics, and even preference and taking it early, by referring to the goals For which it was found, do its procedures conform to the linguistic, linguistic, literary, narrative and critical structure of Algerian society, or do the principles of modern linguistics (linguistics) conform to a different linguistic and literary context? What supports our hypothesis is the comparison between the Levantine critical scene (the Egyptian in particular), which we found differently.
Keywords: physical, rationality, technical, creative, ideology.

ملخص: تولي دراستنا العناية بالمنهج البنيوي تحليلا ونقاشا إبستمولوجيا مستفيدة من أدلة منطقية من مدونة النقد الثقافي، على فرضية أنّ في هذا المنهج (البنية السردية) ما أهلّه لاطّلاعه بحصة الأسد في النقد الأكاديمي، وبمناهجه المقاربة البنيوية كالسيميائية والأسلوبية، بل وتفضيله واتّخاذه مبكرا، بالرجوع إلى غاياتها التي من أجلها وجدت، فهل توافق إجراءاتها البنية اللسانية واللغوية والأدبية السردية والنقدية للمجتمع الجزائري أم توافق مبادئ علم اللغة الحديث (اللسانيات) الذي ولد في سياق لغوي وأدبي مختلف؟ وما يعضد فرضيتنا هو المقارنة بين المشهد النقدي المشرقي (المصري بالخصوص) الذي ألفيناه مختلفا.
الكلمات المفتاحية: المادية، العقلانية، الفنية، الإبداعية، الأيديولوجيا.

مقدمة:

طالما انصب اهتمام النقاد البنيويون على الجسد اللغوي للنص الأدبي، ولم يهتموا في تحليلاتهم قط بالأفكار التي يتكون منها، ولا بالمشاعر والآراء التي يعبر عنها، لكن مع تطور الاتجاهات النقدية والفكرية المعاصرة التي واكبها تطور الأبحاث والدراسات اللغوية أيضا، في الاتجاه الذي يعيد الاعتبار للظاهرة أو الطبيعة الإنسانية والفنية للأدب منتقدا في المقام الأول أيديولوجيا التقنين القاتلة للجوانب الإنسانية، ودارسا للإشكاليات المنجرة عن رفض البنيوية للقيمة الفنية، وهذا على المستوى العربي فقط نتيجة لطبيعة اللغة العربية وأدبها التي تبقى لغة مستقرة

المعجم وبلاغية مقارنة باللغة الحية التي ولدت في خضمها اللسانيات، وبرغم هذه التحولات مازال لم يخامر البنيويين المغاربة المعاصرين (بالأخص) الشك الذي يخلط الأوراق ويعيد الحسابات إعادة عملية بعد.

لعل تمثُّل المغاربة للنظريات المادية (البنيوية) وهي خارج سياقاتها الثقافية، تنظيرا وتطبيقا قد خلا أو أغفل إلزامية مزيد من الشرح والتفسير الإبستمولوجي أو التنظير المواكب؟ فعلى سبيل المثال ظلّ مفهوم الشعرية بصدد معنيين: معنى بنيوي (اصطلاحي: poétique) ومعنى بلاغي سياقي وهو قائم، مفضي إلى إشكاليات ومفارقات تتعارض ونظرية الأدب من قبيل التكريس الإطلاقي للموضوعية العلمية على حساب الفنية وإشكالية الموائمة أو الصنعة في العمل الأدبي، وفي جميعها نجد تسلل لِآثار من الأيديولوجيا؛ العدو الجدلي للفن والجمال.

وإن لم يكن كذلك فلماذا مازالت تتجه معظم البحوث النقدية الخاصة بتحليل ودراسة المنتوج الأدبي الجزائري سواء كانت بحوث أكاديمية ـ بما في ذلك مذكرات التخرج ـ أو أبحاثا مستقلة إلى المناهج البنيوية؟ بالرغم من أن تلك المناهج التي اصطُفيت مغاربيا وغربيا في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي ما فتئت أن بدأت تهوي خارجة رويدا رويدا من اهتمامات الفكر الغربي، متبوعا بالفكر العربي في المشرق العربي، بخاصة في مجال النقد الأدبي، فاسحة المجال لمناهج ما بعد البنيوية كالتفكيكية والهير ومنطيقا والنقد الثقافي.

وقامت **فرضية بحثنا** على اعتبار دراسة إحصائية إعلامية اطّلعنا عليها مؤخرا تؤكد أن البنيوية مازالت من حيث الكم هي المسيطر على الساحة النقدية الأدبية الأكاديمية في الجزائر، ليس ذلكم فحسب بل من مصادفاتنا لعديد الدراسات النقدية النظرية والتطبيقية البنيوية عبر الإعلام الإلكتروني المستقل والتي تضاهي المنصات البحثية الرسمية، وأكثر أصحابها من الجزائريين أو المغربيين دون سواهم، فما خلفيات هذا الانتقاء؟ فهل تعود إلى نأي النقد الأكاديمي الجزائري المعاصر بمناهجه البنيوية عن السقوط فيما يحيد به عن الموضوعية، وهو في حالة النقد الأدبي الأيديولوجيا؟ وإن لم يكن كذلك، فما مدى محافظة هذا النقد الأدبي الأكاديمي بمناهجه البنيوية تلك على مسافة واحدة بينه وبين مختلف الأيديولوجيات التي تترصده جدليا؟

يهدف بحثنا نقد ومناقشة مغزى تطبيقات النظرية البنيوية على النقد الأدبي، بالبحث عما يقابل أيديولوجية العقل الأداتي، والتقنية والمادية وخاصية اللا معنى، وكلها من مرصدات النقد الثقافي سليل مدرسة فرانكفورت النقدية، وأن كلاهما المناهج البنيوية والنقد الثقافي ليسا نظرية نقدية فلسفية بحتة بقدر ما هما مرحلة من مراحل إبستمولوجيا المعرفة التي تخص النظرية النقدية الحداثية.

لقد اخترنا التحليل الأبستمولوجي المدعم بنشاط النقد الثقافي في بحثنا من أجل تفادي مزالق منهج نقد النقد التجزيئي؛ فالتركيز على النظري دون التطبيق قد يسِم البحث بعدم مصداقية الطرح، ففرضية غياب الدليل العملي المؤيد بالنظرية هو اللاعقلانية نفسها التي هي موضوع بحثنا ومنهجه في نفس الوقت (في حال طرحنا فرضيات قد تلتبس بالحكم الجاهز على غرار حكم "عدم موضوعية المناهج النسقية/البنيوية عندنا أكاديميا" جراء ما تفرضه من أيديولوجيا مكرسة "للأداتية" والعقل المادي التجريدي ثم لا نثبت ذلك عمليا) ثم هل نقتصر على تطبيقات البنيوية بالتركيز على الهفوات التطبيقية أم نجرُد القواعد النظرية بحثا في الأصول والغايات والتي وحدها تتطلب دراسة؟

فالبحوث العلمية القصيرة في نقد النقد غير ذات جدوى علمية لأنها إمّا أن تخلُص إلى الاجتزاء أو إلى السطحية جراء تركيب الدراسة النظرية في الدراسة التطبيقية وأحلاهما مر.

1. مناقشة غايات النقد الأكاديمي الجزائري المعاصر في اعتماده المناهج البنيوية:

1.1 الغاية الموضوعية العلمية:

سنبدأ من نموذج تطبيقي (نقد أكاديمي: ماستر فما فوق) ثم نعود من خلاله لنعرّج على نشأة البنيوية structuralism كمدرسة نقدية حداثية تعود أصولها المعرفية إلى نهاية القرن 19 وبداية القرن الـ 20 في خضم ما عرفته الفلسفة المثالية والمادية آنذاك من محاولات حثيثة لترسيخ قدميهما وعزل علوم الميتافيزيقا والعلمانية الإنسانية مستزيدةً من تطور العلوم التجريبية والوضعية التحليلية، حيث كانت لأعمال ماركس ودي سوسير وفرويد في فلسفة التاريخ والنحو المقارن وعلم النفس على التوالي الأثر الأبرز باتجاه تبلور نظرية أدبية حديثة، وفي علوم اللغة والنحو المقارن نهاية القرن 19 بدأ يُخضع ظواهره اللغوية أول ما بدأ للمنهج العلمي التجريبي على يد أوجست فيك August Fick ثم دي سوسير أسوة باللغوي الألماني Von Humboldt الذي اهتم بعلاقة اللغة بالفكر وأسوة بالمورفولوجيا الاجتماعية على يد أوجست كونت وإميل دوركايم حين دعا إلى النظرية المسماة "العقل الجمعي"، وبدراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وكليهما نحيا منحى الفلسفة التجريبية عند أهم ممثليها (جون لوك ودافيد هيوم) التي ترى أن التفكير يجب أن يستمد عناصره الأولى من الحس والتجربة، وبذلك استبعدت كل القضايا الميتافيزيقية، واهتمت بقضايا المجتمع والحياة، وقد طبق هؤلاء مناهج هذه الفلسفة على الأدب على نحو قسري عندما حاولوا وضع قوانين للأدب كقوانين الطبيعة، وفسروا الأدب تفسيراً علمياً مادياً محضاً.."[1]

ولا بأس أن نرى قبل ذلك كيف أن هذا الطالب الجزائري في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه الذي يقول في بحثه الأكاديمي: «يعتمد كثير من النقاد في تحليلهم للنصوص الأدبية على بعض الظواهر الشكلية، أو يتجهون بها خلف معطيات وتفسيرات نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو حتى مذهبية مما يجعل هذه النصوص تعيش خلف أسوارها. إنّ هذه الدراسات الضّيقة التي لم تتعمق في أغوار هذه النصوص لاستجلاء مكامنها الجمالية والإبداعية تعتبر معالجات وتفسيرات ضيقة غير ناضجة لا يمكن لها أن تفجر ما تنطوي عليه المعاني والعبارات.»[2] معتقدا أن المناهج السياقية لا تتعمق في أغوار هذه النصوص لاستجلاء مكامنها الجمالية والإبداعية! بل أنها تفسيرات "غير ناضجة" وهو حتما يقصد افتقاد هذه الدراسات النقدية للدقة العلمية الموضوعية كنتيجة لتوخي المناهج السياقية لهامش من الذوقية أو ذلك البصيص الذي لا بد منه من الذاتية؛ فالذاتية في الأدب هي الإبداعية التي إن غابت حلّت محلها جدليا الأيديولوجيا* إما التي من النوع المعروف (لا داعي لذكرها وستنجلي مع توالي أركان

[1]. كارلوني وفيللو، تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعيد يونس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط 1، 1963، ص 42.

[2]. دون مؤلف، الفصل الأول: الدراسة النظرية، طبعة إلكترونية متيسّرة على الشبكة العنكبوتية، ص 5.

*. لعلّ الوعي بالأيديولوجيا ومحاولة التحرر من ربقتها ليس بالشيء السهل المنال أو ليس متاحا للداني والقاصي كون أن: الأيديولوجية حاجة أساسية للفرد، لأنها تأتي في المرتبة الرابعة بعد الحاجة إلى الطعام وإلى الجنس وإلى الأمان. وهي حاجة

البحث) أو أيديولوجيا واقعة كنسق مضمر لم تكشف عنها غير النظرية النقدية المتطورة عن مدرسة فرانكفورت مؤخرا متوسلةً بنظريات ما بعد البنيوية أو النقد الثقافي وهي بالذات أيديولوجيا التقنين والتشيؤ والأداتية واللا وعي بها؛ كونها مُغمطة للعقول وباتجاه واحد رغما عن إنسانيته، والتي حلّت محل الشعور الجمعي فغدت حياة البشر شبيهة بروبوتات مصنع إلكتروني متطور، فالحداثة لِما انطوت عليه من تكريس لأيديولوجيا التقنية أجهزت بإجهازها على المؤلف على الذات المبدعة، وبما انطوت عليه من حدس وتفكير به (بالعقل الباطن المتحكّم في العقل الواعي)، فـ"في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وفي العقود الثلاثة التي تلتها بشكل خاص، ظهر موقف من التنوير حمّله مسؤولية الوحشية والاغتراب والتشيؤ التي حلت بالإنسان والمجتمعات وهي، في نظر أصحاب هذا الموقف، لم تكن لتحدث على الشكل الذي جاءت عليه لولا «العقل الأداتي» الذي نتج عن استخدام مبادئ العقل كأداة سيطرة على الواقع الإنساني وعلى الطبيعة، وعند هؤلاء أن الأمر قد وقع بفعل عقلانية عصر التنوير كما ترى «المدرسة النقدية» (وتدعى أيضاً مدرسة فرانكفورت) على لسان كبيري مؤسسيها ماكس هوركهايمر (1890–1973) وتيودور ف. آدورنو (1903– 1999).."[1]

1.1.1 القواعد العلمية وإشكالية استحالة وصف المعنى وصفا شكليا:

لعلّ في وظيفة النص الأدبي ما لا يوافق وظيفة النص اللساني وخطابه التواصلي، فهل أدرك أوائل البنيويون الذين اتخذوا منهج دي سوسير في دراسة علم اللغة (اللسانيات) منهجا لدراسة لغة الأدب ما فيها من سياقات وذهنيات وبيان وكلها خليقة بالترعرُع عليها لوصفها وصفا شكليا وما بالك بتأويلها تأويلا قراءاتيا؟ أوليس لبنية النص خلفية جدلية تعالِقُه، لا تستوي ممكناته إلا باستواء مكنوناته؟ فالنص الأدبي خطاب ومعنًى وجماليات وتداول، فما فائدة تلك المعاني وتلك الدلالات والتي لا أدري أيستشفها ناقدنا الأكاديمي عن ذوق لمَّا يطوف داخل بنية النص ومستويات العلائق ووشائج القربى التي تربط عناصر اللغة تلك؟ أي هل هناك ما يدل على الجانب الإبداعي أي استيفاء المعنى الجميل أم مجرد آليات الدلالة الصماء التي تقود إلى إجراءات الدلالة، لا ماهية الدلالة، طامسة الذوق الجمالي للنص؟ هنا يكمن مربط الفرس، لأن المنهج البنيوي على موضوعيته يشترط تحليل بنية النص تحليلا وتركيبا لعناصره، لكنها علائق تجبر الحواس وتدفعها إلى تذوق ما يفوح من عبير تلك البنية، أو هو الحدس بتعبير صلاح فضل لأنه بصدد خطاب أدبي لا خطاب تواصل لساني: " (..) منهج البحث العلمي للعمل الأدبي يحتاج في أحد حلقاته التي لا غنى عنها إلى هذا الحدس، إذ أن التحليل العلمي لجميع العناصر التي

أساسية للمجتمع لأنه لا يمكن تصور مجتمع حديث أو قديم دون وجود سياسة محددة توجهه داخليا وخارجيا. وتعتمد هذه السياسة على أيديولوجيا معينة قد تكون دينية موروثة أو مأخوذة من إحدى الفلسفات أو تمثل مزيجا من أفكار عامة لها تطبيقات سياسية ملموسة مثل أفكار الحرية وحقوق الإنسان. ينظر جاسم باقر محمد، الأيديولوجيا والسلطة السياسية، موقع الحوار المتمدن، 11/06/2005، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=50612

[1]. غانم هنا، النزعة العقلية وأثرها في حركة التنوير، عالم المعرفة، المجلد 29، العدد 3، يناير ومارس 2001، ص 7.

يتكون منها العمل الأدبي مستحيل، لأنها مركب لمجموعة من المركبات المعقدة والحدس وحده هو الذي يدلنا أمام العمل الأدبي على الجانب الذي يتسم بالخصوبة"[1]

وللتوضيح، فإن استيعاب المغاربة للمناهج البنيوية ترجمة وتنظيرا كان سابقا لنظرائهم المشارقة، ذوو الباع الطويل في النقد التقليدي والحديث مع إرثهما تراثا سرديا ونقديا، لابد من الوقوف عند اختلاف المدرسة الفلسفية العقلانية عن التجريبية في تعريف مصطلحات أساسية في المنهج البنيوي وهي ثنائية الحكاية/القصة أو الخطاب السردي/القصة، فجوناثان كيلر يوافق تودوروف في عد السرد ذو مستويين: مستوى القصة التي تمثل متوالية الأحداث وفق نظام التتابع الزمني، ومستوى الخطاب الذي يعني طريقة تمثيل القصة لفظيا، لكن يختلف معه في تحديد القيمة الجمالية للثنائية القصة/الخطاب بسبب استراتيجية فلسفية؛ ففي حين يرى كيلر أن القيمة الجمالية تنجر عن تفاعل لا انفصالي بين للثنائية الجدلية قصة/خطاب ولا غنى فيهما لطرف عن الآخر، بينما يختزل تودوروف وتابعه سعيد يقطين هذه القيمة وينسبها للمستوى الخطابي فقط، حيث القصة عنده تجاور الخطاب وتنفصل عنه[2] (بالاشتغال على مادة النص واستبعاد محتوى القصة) وهو بذلك بالكاد يقارب هذه الثنائية الجدلية بثنائية اللفظ/المعنى في النقد التقليدي، ولعل النقد البنيوي الأكاديمي المغاربي لم يتعرض أو يشر إلى هذا الاختلاف بينما جابر عصفور في ترجمته "عصر ما بعد البنيوية" وأحمد يحي علي الروبي في كتابه "بلاغة الرواية، دراسات تطبيقية في السرد الروائي العربي الحديث والمعاصر" يشيران إلى ذلك، ولعل تأويل ذلك أن النزعة العقلية يغلب عليها طابع الانغلاق على الذات.

ولعلّ للنقاش المفتوح بين النقد الأكاديمي ونظيره الإعلامي السنوات التي أعقبت ظهور المناهج البنيوية واكتساحها للحياة الفكرية والثقافية في المشرق العربي كشف عن ضرورة خضوع النظرية النقدية الأدبية المستوعبة للتمحيص والتنظير لتوافق خصائص اللغة العربية ومعجمها المستقر غير المتحول*، وهو ما وقفت عليه مدرسة البنيوية في اتجاهها الأنجلو سكسوني. وقد عرفت الصحافة المصرية المدارسة والمناقشة النظرية طيلة القرن الماضي أو قل التنظير (نقد النظرية النقدية الجديدة وليس نقد النقد الأدبي) وقد بلغ مبلغا عن طريق التنافس بين النقد الصحفي والنقد الأكاديمي وهذا مالم يحدث في الجزائر إلا نادرا، ففتحت الأبواب على مصراعيها للنقاد من رافضي البنيوية والحداثة من الاتجاهين، فهناك من انتقدوا أغراض شعر الحداثة، وهناك من رفضوه متعللين بافتقاد

[1]. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1989، ص142.

[2]. محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2014، ص 30.

*. "نشير إلى عامل آخر ساعد على استقرار العربية ومحافظتها على ثوابتها بدون أن يقضي على حيويتها، ويتمثل هذا العامل في أنها ليست لغة الاستعمال اليومي في البيت والشارع والسوق؛ قد يصدم مثل هذا الكلام الذي يعتبر عدم استعمالها، في المقامات المذكورة، من قبيل الإيجابيات. نقول هذا لأن لغة التخاطب معرضة في كل حين للتغيير والتحريف طبقا لقانون الاقتصاد في المجهود، المفضي حتما إلى الاختصار والحذف، وتخفيف ما قد يبدو ثقيلا في النطق إلى غير ذلك من وجوه المسخ." ينظر عبد القادر المهيري، العربية بين الاستقرار والتطور، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، الرياض، ط 1، 2014، ص 14.

مبدعيه للموهبة، وهناك من اعترفوا بقصيدة الشعر الحر، لكنهم لم يعترفوا بشعرائها بعد صلاح عبد الصبور، بينما حاول البعض أن يضعوا أسساً لقبول البنيوية أو النقد الحداثي من جهة ارتباطه بالجذور، وهناك من تسلل لمهاجمة البنيوية عن طريق اللغة، وهناك من النقاد من أكدوا أنهم لا يعادون الحداثة، لكنهم انتقدوا ما يرونه سلبياً فيها مثل كونها مستوردة من الغرب، كما احتل الغموض مقدمة الاتهامات التي أخذها النقاد والمبدعون علي شعراء الحداثة، وهو أكثر ما أُفردت له المقالات وبُسطت له المساحات، ولم تترك باباً دون استغلاله لمواجهة الحداثة، فانتقدتها وأبرزت سلبياتها عن طريق المقالات والحوارات والتحقيقات وقصائد الشعر[1].

فعبارة "عدم النضح" التي أتى بها الباحث ههنا قد أحسن أيما إحسان لما أتى بها لأنها مربط الفرس في موضوعنا وفجوة للنفاذ منها إلى الحقائق الغامضة؛ عندما نقول عن العلم الفلاني أو المنهج الفلاني أنه غير ناضج، العلم أو التوجه النقدي الذي ساد أصلاً في مرحلة كانت الممارسات الأيديولوجية شيئا عاديا، وبالتالي هذا القول يعد من نافلة القول ليس إلا بل يستحسن على الدراسات والبحوث التي هي في مستوى الماجستير وما فوق نبذها أفضل. أما الإصرار على قوله فيعد فجوة أخرى ننفذ من خلالها إلى بعض الحقائق المغيبة عن طلبتنا في الديار الجزائرية. وقد أشار عيد الله الغذامي إلى أن النقد الأدبي الشكلاني أصبح بمثابة غطاء للسلطوي والمنزوي المؤسسي فشكّل أداة أيديولوجية بالنسبة لهما غير أنه مع بداية التسعينيات من القرن العشرين دعا الباحث الأمريكي "فنسنت ليتش" إلى نقدٍ ثقافيّ ما بعد بنيويّ مهمته تمكين النقد المعاصر من الخروج من نفق الشكلانية، والدخول في أوجه الثقافة، ولا سيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبيّ[2]

أما عندما نقول عن الإنسان الذي يستعمل ذلك العلم وتلك الأداة أنه غير ناضج فالأمر هنا يختلف، ولا يحتمل مقارنته بعدم نضج العلم/المنهج، لأن الأيديولوجيا المدخل للذاتية وتغييب الروح العلمية من المفروض تكون في ذلك الوقت ألصق بالعلم والمنهج وليس بالإنسان، أما في وقتنا عصر تطور العلوم والمناهج نستطيع قلب الآية بكل أنفة ونقول عمّن يلتمس أداة المنهج السياقي: التاريخي أو النفسي أو الاجتماعي أنه غير ناضج غير نادمين وليس أداته الغير ناضجة! ببساطة لأن لكل نص أدبي بعد قراءته وفهمه مقاس بحث أو منهج يناسبه وليس العكس؛ فهناك من النصوص لا يليق لها غير المنهج السياقي، الذي يصفه صاحبنا أنه غير ناضج لأنه يسوق التحليل العلمي مغلفا بهامش من الذوقية أو الأيديولوجية إن شئت التي هي المعنى الذي يحمله النص الأدبي أحب من أحب وكره من كره لأن الأيديولوجيا هاته حالها كالشبح الذي شكّل هاجس النقد الأدبي في القرن العشرين فرأيناه يحاول جهده إقصاءها ـ تجريبا علميا إبستمولوجيا ولكن هيهات سيقع في جدليات ثقافية ومعرفية لا حصر لها ـ ولما فعل ذلك أصّل أو أدى إلى المولد النهائي للمدرسة البنيوية في النقد الأدبي لكنه ما إن مضى به الزمن قليلا حتى أدرك خطء منطلقاته/مبادئه وتصوراته الفكرية عنها لمّا ظهر مصطلح الحدس وهو حاسة لا يقدر باي حال من الأحوال أي باحث يقول أنا وأنا في الصرامة العلمية تفاديها كمقابل لمفهوم البنية ثم من بعدها ظهر مفهوم

[1]. عماد محمد، اتجاهات الصفحات الأدبية في الصحافة المصرية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي صحيفة الأهرام نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، 2010، من المستخلص.

[2]. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2000، ص31.

الوصفية عند تشومسكي أو الرؤية حيث يعبر عن ذلك بشمولية الرؤية: وهي تتجاوز الصيغ اللغوية لتحتضن موقف الإنسان الكلي ورؤيته للعالم..[1]

2.1.1 تتالي النظريات المقاربة لعلمنة اللغة وظهور شبح الأيديولوجيا كلما اقتربت من ملامسة المعنى:

ثم تتابعت الحقائق حول علمية المدرسة البنيوية مُفضية إلى استيعاب الفكر البشري، نتيجة قناعة تجريبية ما انفكّت تُطرح والتي مفادها؛ كم هي محدودة طاقاته الإدراكية في العلوم الإنسانية والميتافيزيقية على السواء؟ ـ إلى درجة الوهم ـ وكلّما خطى خطوة إلى الأمام على طريق العلم؛ فحين أقيمت دعائم وركائز البنيوية على أصول علمية وفكرية سابقة ومقاربة لها بدأت محنة هذه المدرسة؛ وأول أصل الذي من خلاله أراد النقاد تفادي الأيديولوجية فسقطوا في شرك أيديولوجيا جديدة أعتى من سابقتها، ولعل الأصل الأول هو حركة الشكلانيين الروس الذي أقامت عليها البنيوية مرتكزاتها، وكانت حينها روسيا تعج بمظاهر تاريخية تتجاذب أطرافها الأفكار الفلسفية والدينية والديكتاتورية، فآثرت الحركة الاستقلال عن تلكم الأيديولوجيات والمذاهب بتتويج نفسها علما ، لكن لما التمست الأدب جاء التعميم عليه أيضا دون أيما اعتبارات إنسانية فقالوا عن الأدب أنه يُعدُّ نظامًا أَلْسُنِيًّا ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاسًا للواقع.

ثم جاءت الخطوة التأصيلية الثانية للبنيوية من صميم الشكلانية نفسها متوهمة الانفكاك من أسر الأيديولوجيا أيضا وهي حلقة براغ، فما أوعز لجاكبسون المضي بإصرار في بنائية اللغة منطلقا من الأصوات الوظيفية هي الأيديولوجيا البولشيفية، وقبل ذلك لا يمكن تجاهل ما عضد أفكار البنيويون للسير قدما في تصوراتهم هو الفكر التحليلي الرياضي الذي طبقه النقد الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة William Whitney (1827 ـ 1894) الذي يعتبر نقطة بداية الفكر البنيوي حسب جورج مونان (اللغة واقعة اجتماعية)، على أن ما فيه من منطق مُغني عن أي مضمون. ثم لعل المصدر التأصيلي الأكثر أهمية في تاريخ نشأة البنيوية هو مدرسة الألسنية الحديثة بقيادة فرديناند دي سيسور بما جاء به من خلاصة أفكار ما سبقه حول بنية اللغة كظاهرة اجتماعية والتي بقدر ما فيها من عبقرية التحليل الفكري المادي للغة بقدر ما فيها من تجاوز خطير لا يقبل التجاوز/التأجيل فيه! وهو ذاك المتعلّق بعدم إمكانية عزل اللفظ /النظام عن المعنى أي عن علم النفس اللغوي في الدراسة العلمية وهو القدر الذي أفضى إلى نتائج نسبية ليست بالمطلقة. وإذا أخذت أنها مطلقة فإنها ستنعكس سلبا على كل منهج يبنى على هذه المبادئ الدي سوسيرية بما سينفجر منها من إشكاليات فكرية عويصة كانفجار الينابيع الدافقة انفجارا لا يوقفها شيء غير تتبع مصدرها.

وهذه هي الأرضية التي تهيّأت بالرسوخية الثقافية المضللة فجعلت من أيديولوجيا العقل المادي سلطة مضمرة تقمع النقد العقلاني الموضوعي الحري بطبيعة العلم، فهو إن كان إنسانيا قائما بالطبيعة على التجربة، وقد أحلّت محلّه "النقد العلمي" المظلّل بظِلال الأيديولوجية. إذن موطئ القدم للذاتية التي ليس من طبيعة الأدب غير مستبعدة، فالنقد الموضوعي هو وحده الذي يستطيع أن يحدد قيم الأعمال الأدبية ويعملها بعضها البعض بحيث

[1] . صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص127.

يحيل أدب الأمة إلى جسم حي متكامل أو مجرى يتدفق دون توقف يتصل فيه الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي.. والنقد الموضوعي هو وحده أيضا الذي يستطيع أن يربي "ما يسمى بالذوق ـ أو بمعنى آخر ـ يخلق القدرة على التمييز بين ما هو فني وما هو غير فني.."[1]

وقد ألفينا معشر السيميوطيقيين (للتمييز بين الأشكال السردية الأدبية عن غيرها من الأشكال الخطابية بجماليات غير بلاغية أو غير سيكولوجية) قد راحوا يقولون بتشفير النص الأدبي، أما معشر الشكلانيون الروس فقالوا من جهة بجمالية وظيفة بناء عناصر الحبكة في الحكي، ومن جهة أخرى بضرورة تحليل العلاقة بين الإنشاء والأسلوب، وهناك من الباحثين في فلسفة الفن والجمال من يؤكدون أنّ للغة التواصلية/اللسانية نفسها جمال خاص بها، وهو الجمال المدرك شكليا، كما يقول به رمضان الصباغ: "وبناء على ذلك فإن الكلمات في العمل الأدبي تمثل مادته، وبالتالي تحكمها القوانين التي تحكم اللغة.

وقد تطور هذا المفهوم فيما بعد إلى مفهوم "النسق" الذي صار يعبّر عن وحدة عضوية لما يسمى تقليديا بالشكل والمضمون ولقد انبثق مفهوم الشكل ـ بهذا المعنى ـ من تصور للإدراك الفني أو الإدراك الجمالي على أنه إدراك للشكل، وأن هذا الإدراك ليس مجرد حالة سيكولوجية وإنما هو عنصر من عناصر الفن. فالفن لا يوجد خارج الإدراك، والشكل وحدة ديناميكية وملموسة لها معنى في ذاتها دون إضافة أي عنصر خارجي عنها، وتدرك بشكل مستقل عما عداها"[2] لكن ألم يكن الأولى بكل هذه الجهود الأبستمولوجية في النقد الجديد النظر بجدية إلى الأدب باعتباره غير منفصل عن جوهره، وعدم التعالي عن النقد التقليدي والقفز عليه مجرد القفز. في الحقيقة هذه ما هي إلا نتائج نسبية المعرفة في المناهج البنيوية بعد اكتشاف نظريات تحليل الخطاب (نزوع البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا نحو هيمنة وتطاول أحدهما على الآخر قصد تحقيق أهدافه التعميمية الرامية إلى تغطية الميدان كله. فبأي ميدان يتعلق الأمر؟ إنه ميدان الخطاب الممفصل في تشكلات للمعنى أوسع من الجملة)[3] ونظرية القواعد التوليدية التحويلية لنعوم تشومسكي، حيث أثبت تشومسكي من خلال توجه عقلي عملي أو تجريبي مصدره الحس أنّ جمال الشكل اللفظي متواشج (مركب) بالحالة النفسية/المعنى الذهني للمتكلم، وحسبه هو الأسبق في مدار إحداث الدلالة المنجرة عن الثنائية (شكل/لفظ ـ محتوى/مضمون) التي تبدو متزامنة الحدوث.*

---

[1] . عبد العزيز برهام، مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديما وحديثا، ج1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت، ص12.

[2]. رمضان الصباغ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء، الإسكندرية، ط 1، 1997، ص 330.

[3] . بول ريكور، البلاغة الشعرية الهيرمينوطيقا، أوان، العدد 9، فبراير 2005، ص 112.

*. حيث يرى في نظريته التوليدية أن "اللغة البشرية ملكة فطرية ذات جوانب إبداعية تتجلى في القدرة على فهم وإنتاج ما لا يتناهى من الجُمل الصحيحة من خلال نسق صوري متماسك، بقدر ما يدخل في التركيب العضوي للدماغ بقدر ما يشكل جزءً من النظام الإدراكي، وهذا النسق اللغوي الوراثي قوامه جملة محددة من المبادئ يُسميها تشومسكي " (الكليات النحوية) ويرى أنها تتحكم في جميع اللغات البشرية." ينظر نعوم تشومسكي، اللغة والعقل، ترجمة إبراهيم مشروح ومصطفى خلال، دار تيمنل، مراكش، ط 1، 1990، ص 23.

ثم إنّ الباحث الفرنسي عندما أوجد المنهج البنيوي لم يضع في الحسبان هذه الاعتبارات التي استغلتها الشعوب التي لا تمتلك زادا وموروثا لغويا صافٍ لكي تنتج به شيئا يدعى أدبا كالجزائر، ولو أنه وضعها في الاعتبار وأدخل هذه القاعدة في الأساس لأصبح المنهج البنيوي محرّم تطبيقه على النصوص التي يغيب فيها الحد الأدنى من الأدبية والتحكم في اللغة العربية (مجرّد حشد لكلمات أغلبها ملحونة بها عجمة في فقرات و الفقرات في صفحات)؛ "غير أن الانتماء إلى الأدبية عموما، أو إلى النوع على نحو خاص ليس كافيا للحكم على جودة العمل الأدبي، وإنما يكفي ـ فقط ـ لمجرد الحكم بالانتماء، إذ تظل الجودة مرهونة بمحددات أخرى، ترتبط بالإبداعية والقدرة على الخلق، والقدرة على إنتاج جماليات جديدة تضاف إلى النوع الأدبي، والقدرة على الحبك والنظم في نسق مترابط، والقدرة على استيعاب التطورات التي لحقت بهذا النوع عبر تاريخيته ومن ثم تجاوزها.."[1] ، إذن ليست الأدبية المقصودة هنا أدبية تزفيتان تودوروف وغيرها المتمثلة في تحليل البنية اللغوية والبنية السردية جماليا فأي جمال وأي دلالة قد يقترن بالسرد وباللغة وهي ليست لغة أصلا؟ أي غير سليمة صرفيا ونحويا (تركيبا وإعرابا) وليس فيها من تنوع معجمي يشبه ذاك التنوع الذي نجده عند العرب المشارقة، إذن ليس فيها من روح عربية غير حروفها الهجائية، ولا بد من التفرقة ههنا بين ما تصطلح عليها المناهج البنيوية بمصطلح "أدبية الأدب" أو "الشعرية" أو "الخطاب السردي" أو جمالية الوظيفة التزيينية، الخليقة كلّها بإجراءات الماهية الخالية من القيمة الفنية (البلاغة والمخيلة الإبداعية) أي افتقاد الخطاب النقدي البنيوي الذي هو خطاب لغوي بحد ذاته للقيمة الفنية بماهيتها وبعبقها، بيانا ونكهة/ذوقا، هذا الخطاب الذي أثار الغيورين على مدونة الأدب والنقد العربيين منذ ظهوره بدءً بطه حسين والعقاد وانتهاءً بشكري عياد وعبد العزيز حمودة.

وهنا لا بد من ملاحظة أثيرة تثبت إشكالية كبرى لازالت تشكل منطقة مظلمة في فهم الأدب وهي الإشكالية الجدلية (اللغة ـ المعنى/الفكر)، ولا يسعنا المقام هنا غير الاختزال لأن الموضوع يحتاج لدراسات في مجلدات ومجلدات: فجمال المعنى والفكر من جمال اللغة في الأدب؛ فيها وبها، وليس استغناءً عنها لصالح عناصر الخطاب السردي، والأدب بهذا المفهوم ليس أبدا إفادة معرفية في غير من ثوب من المتعة وإلا تحوّل إلى مدونة تاريخية، لأن العلم وهو يحاول أن يعارض الأدب معارضة مطلقة (بتعصب) هو ينزع للتقنين والتكميم آليا ليغدو كمقابل له وقد تحول إلى أيديولوجية التقنين، والأدب الذي يعرض هذه المنافرة غير مستحٍ ولا آبه بنتائجها، لأنه هكذا طبيعته وجدانية نفسية فمهما دخل عليه العلم ليقيسه بقياساته لابد أن يراعي طبيعته لذا قيل "علم الأدب" بالجمع بالطرفين النقيضين، الجمع الذي يشير إلى النّسبية وجوبا. وهذه النتيجة هي ما تشرحها الفقرة التالية المأخوذة من مقدمة كتاب علم الدلالة (علم المعاني) لمحمد علي الخولي بالصفحة 11، أين كل ما ذكر مفردات اللغة والوظيفة/ النقد البنيوي والمعنى/الأدب إلا وأعقبها بمفردة المتعة: "علم الدلالة هو أحد فروع علم اللغة أو اللغويات أو اللسانيات. وهو من أهم هذه الفروع وأعقدها وأمتعها في آن واحد. فهو هام لأنه يبحث في المعنى الذي هو الوظيفة الرئيسة للغة. وهو معقد لأنه يبحث في أمور مجردة متشعبة ذات طبيعة فلسفية نفسية. وهو ممتع لأن

[1]. محمود الضبع، الرواية الجديدة قراءة في المشهد العربي المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010، ص17.

اقتحامه، على ما فيه تعقيد، يعطي الباحث متعة ذهنية راقية"[1] والعلاقة الجدلية تكمن في أنه كلما زادت جماليات اللغة بيانا/جمال المعاني زادت الإفادة المعرفية وكان وقعُها في النفس أقوى (كنتيجة نفسية للانشراح الذي تحدثه) وأضحت هذه العلاقة تشكل أدبا وكلما قلّت تلكم الجمالية رُجِّحت الفائدة الخارجية عنه والغير أدبية التي هي الأخلاقي Éthique على حساب الجمالي Esthétique وخرجت العلاقة بين الطرفين اللغة والمعنى رويدا رويدا من فضاء الأدب.

2. إشكاليات ومفارقات الأصل المنجرة عن تفضيل النقد الأكاديمي الجزائري للمناهج البنيوية:

إنّ الفكر البنيوي خلق عقب نشأته ثم انتشاره رفضا وتعصبا شدا وجذبا، بل وصراعات فكرية حادة بين الحداثيين والتقليديين في الوطن العربي لأنها أطلقت مقولة موت المؤلف، وشنّ عليه المحافظون ومازالوا حملات مدروسة منها ما اكتسى طابع النقد العلمي المنضبط في فترة السبعينات والثمانينات لكنه سرعان ما أخذ طريق اللا انضباط واللا دقة العلمية بعد ذلك بخاصة في بعض الجامعات التقليدية؛ يطرحون فيه على طلابهم ولغايات تعليمية حقائق مغلوطة عن أصول البنيوية وغاياتها، "والبنيوية عند ظهورها لا تعتبر اتجاها مماثلا وموازيا للاتجاهين الرئيسيين الموجودين آنذاك في أوروبا (الشكلانية والماركسية) بل تعد منهجا تفرع عن أحد المنهجين السابقين أو كليهما"[2]

ولعلّ حقيقة الحقائق التي لا تقبل المجادلة والتي لا يسمح موضوع مقالتنا من الاستفاضة فيها، هو أن للفكر البنيوي أصول فلسفية وهو الذي انبرى مع ثلة من المفكرين: إيمانوال كانط، لوي التوسير، أوجست كونت، رومان جاكوبسن، كلود ليفي شتراوس نقض أطروحات المدرسة الفلسفية المثالية (أفلاطون ـ شلنج ـ هيغل) التي تقول بالروح المطلق أو أولوية الفكر على المادة في منهجها و أطروحات المدرسة المادية أيضا التي ترى العكس بأن المادة هي التي تحث الفكر وبدونها لا يحدث التغير والارتقاء وهو التفسير المادي القائم على صراع المتضادات أو المتناقضات (ماركس فيبر ـ كارل ماركس). إذن بين النظرة الإلحادية والشيوعية التي تلغي تماما دور الميتافيزيقا أو ما أصبح يعرف بعلم الميتافيزيقا وبين الفلسفة المثالية والمدارس الكاثوليكية والمذاهب القريبة منها نشأ الفكر البنيوي من رحم الفلسفة التجريبية والعقلية محاولاً ردم الهوة بين المدرستين الفلسفيتين الأشهر في أوروبا آنذاك مع الوجودية* طارحا مرتكزه الأساس وهو أن الذات المتعالية /الله لا تعني هذا الفكر من قريب أو بعيد وهو لا يرفضها كالفكر المادي (ليس إلحاديا) لكن يحيدها عن العملية العلمية إلى مضاربها المرحبة بها وهي الطقوس

---

[1]. محمد علي الخولي، علم الدلالة (علم المعاني)، دار الفلاح، الأردن، 2001، ص 11.

[2]. محمد بن عبد الله بلعفير، البنيوية النشأة والمفهوم، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 4، العدد 15، سبتمبر 2017، ص 234.

* . المدرسة الوجودية فلسفة العبث بلا معنى من ناحية الفن والأدب والحرية تعلي من ذاتية الإنسان كما يثبت ذلك زعيمها جون بول سارتر: أتقبل البنيوية متى بقيت في حدود المنهج أما إذا تخطت ذلك، فإنها تخطت حدود شرعيتها فالبنيات لا توجد من عدم وإنما هناك من أوجدها ألا وهو الإنسان إذن كيف يمكن القول بثبات البنى والإنسان يخلقها باستمرار. ينظر محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الحقيقة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 2، 1996، ص

والاعتقادات الروحية، من ثمة تجاوز إشكالية أن الحقيقة /المعنى كامنة في الداخل/ في بنية الطبيعة وبين أن تكون كامنة في الفكر/ في خارج الكون، دافعة بهذا الصراع الثنائي إلى الظاهرة في بنيانها ونظامها المشيّد و دون ذات متعالية؛ على أن ليس هناك انفصاما بين اللغة والعقل/الفكر بل تكاملا يُستقصى من خلال ثنائية دي سوسير الشهيرة دال ـ مدلول أي أن المعنى تابع للبنية، لا وجود تصورا للعالم من دون مادة، ولا نجد أفضل من الفيلسوف بول ريكور لدحض أقوال المحافظين المغلوطة اتجاه الأصول الفلسفية للبنيوية وحداثة الغرب عموما، التي أعطتها دون أدنى شك البنيوية دفعا قويا، زاعمين أنها مجرد اتجاه لقراءة النصوص الأدبية حيث يقول: "نميز هنا بين البنيوية الفلسفية عن الألسنية البنيوية (..) لا شك أن البنيوية الفلسفية تنطلق من هذا التفكير ولكنها تضيف أطروحة حول الواقع الذي لم يعد يشكل أطروحة عند الألسنية بل عند الفلاسفة"[1]

1.2 كيف تعاملت البنيوية مع التاريخ والواقعة الاجتماعية؟:

ولعلّه ما أمد النظرية البنيوية أكسير حياة كي تنهض وتخرج من كونها مجرد فكرة فلسفية مكتسحة مختلف العلوم رافدان من العلوم الإنسانية؛ بالتحديد من للغويات وهما: أبحاث فرديناند ديسوسير Ferdinand de Saussure في قوله بالنسق أو النظام في دراسته العلمية اللغة والمدرسة الشكلانية الروسية على يد رومان جاكُبسون Roman Jacobson الذي يعد أول من نطق اسم البنيوية أثناء المؤتمر الأول الذي خصصته حلقة براغ للأسلوبية عام 1929، وهناك من يضيف لهما تحاليل سيقموند فرويد النفسية. وفي هذا الرافد ينكشف خيطان يثبتان أن البنيوية ما هي إلا مرحلة أبستمولوجية معرفية تحوي في طياتها تناقض فكري صارخ على مستوى بنية الذات الإنسانية ـ والتي مثلنا لها أعلاه بالسلوك الغير واعي بل غير المعاصر التحضّر للقائمين على ترسيخ المناهج البنيوية أكاديميا ـ وعلى مستوى بنية الخارطة السياسية المشكلة من اليساريين والليبراليين والتقليديين:" البحث عن أنظمة مجردة وصورية جدا في العلوم الإنسانية هو، على مستوى الفانتازيا اللاواعية، أمر مازوخي. والحق أن هذه الإشارة تلقي ضوءً كافية على التحفيز اللاواعي الذي يمكن أن يكون واقفا خلف تطور الأنظمة البنيوية، في المرحلة الفرنسية على الأقل، حين قُصد من هذه الأنظمة أن تفسر بنية الذات الإنسانية، واشتغالات الرغبة الإنسانية. فالبنيوية، بقدر ما يتم تصورها كشبكة لربط الرغبة وتقييدها، هي فانتازيا مازوخية؛ وبصورة حرفية، هي فانتازيا استرقاق. أما بقدر ما يتم تصورها كشبكة لربط العقول الأخرى أو الأجساد الأخرى وتقييدها، فهي فانتازيا سادية. (تبدي النظريات الألتوسرية الخاصة بالإيديولوجيا مثل هذا الشعور السادي، والألتوسريون الفرحون الذين اعتادوا على الإعلان عن أنهم "لا إنسانويين نظريا" يتمتّعون بالصّفة السادية على وجه التحديد، حيث يمكن للمرء أن يشعر باستمتاعهم لدى المضي في استئصال شأفة الإنسانويين المنكمشين والمرتعدين)"[2]

وفي الحقيقة أن البنيوية منذ نشأتها نشأت ملتبسة بين المدرسة الإنجليزية الإنسانية والمدرسة الفرنسية العقلانية والدليل يخبرنا به ليونار جاكسون مؤلف "بؤس البنيوية" وكيف أنه ظهر مع بارت حين مناقضته لمفهوم

[1] . بول ريكور، فلسفة اللغة، ترجمة علي مقداد، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1979، ص24.

[2]. ليونار جاكسون، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، ط 1، 2008، ص 208-209.

الدالول/العلامة اللغوية في ألسنية دي سوسير؛ فحينما أراد بارث إثبات لا إنسانية الفكر البنيوي أي عقلانيته الصورية المجردة بالبنيوية السيميائية سقط في الخلط مع التصور الفيرثي الإنجليزي للعلامة وهو تصور إنساني: "ويتبنى بارت في جزء لاحق من المقالة فكرة مختلفة عن علم الدلالة، حيث تكون الوحدات في مستوى أدني (أشكال) وتتكامل في وحدات أعلى مستوى (معاني)، وهذا لا ينسجم عملية مع التصور الدي سوسيري للدالول وينم على التأثير الذي مارسته بعض قراءات بارت الأخرى في الألسنية، فهو يقتبس هنا من بنفنيست، أما في التقليد الإنجليزي فإن هذا التصور هو تصور فيرث، وهو تصور ينطوي على خلط بين التركيب أو (النحو) وعلم الدلالة. ومن الواضح أن بارت يرمي شبكة واسعة بحثا عن الأفكار النافعة، إلا أنه يفتقر إلى الرصانة والإتقان الفلسفيين، وإلى التعمق في الألسنية، ممّا يحتاجه المرء لتنقية هذه الأفكار وبناء فكرة واضحة عن موقفه النظري. والنقاد الآخرين جميعا ليسوا بأفضل حال من بارت"[1]

ولعلّ مصطلح الشعرية أو الوظيفة الشعرية يتغير مفهومه بحسب المنهج النقدي لأن البنيوية ترفض المعنى من اللغة، حيث يغدو الانتظام بحد ذاته هو ما نسميه بشعرية البنية السردية الأدبية أو شعرية الخطاب الأدبي في المناهج البنيوية والشكلانية وهو كذلك في شعرية البنية اللغوية السردية من أدنى مقطع في الخطاب اللغوي الذي هو الفونيمات إلى أعلاها وهي الجملة المفيدة (جماليات البنية التركيبية)، حيث في كليهما، سواء بنية اللغة أو بنية السرد الغاية هي الوصف العام الذي وراءه إفادة وليس الجزء كما يقول رولان بارت:" تقدم اللسانيات إلى التحليل البنيوي للمحكي، منذ البداية، تصورا حاسمة لأنها تهتم مباشرة بكل ما هو أساسي في أي نظام للمعنى، أي طريقة تنظيمه وتسمح، في وقت واحد، بالتعبير عن كيفية أن المحكي ليس مجموعة بسيطة من العبارات، وبتصنيف الكمية الكبيرة من العناصر التي تدخل في تركيب المحكي. هذا التصور هو تصور مستوى الوصف"[2]، بينما مصطلح البلاغة وجمالياتها في المناهج السياقية والمعيارية هي المقصودة بالشعرية، حيث نستبدل مصطلح خطاب شعري فيها بالتعبير أو النّظم الذي يجمع جدليا اللفظ بالمعنى، وهنا جمال المعاني الجزئية في الجمل وأشباه الجمل مطلوب لحد ذاته، ولمّا كان الأدب فنًا مثل الرسم والموسيقى فإن جوهره الأسلوب وليس فنيات السرد Narratologie، لأن الشعرية بالمفهوم البلاغي التقليدي ترى أن شعرية الوظيفة البنيوية ماهي إلا فنيات السرد وهو ما أشار إليه أوّل من نظّر للمنهج البنيوي في العالم العربية العام 1966 وهو محمود أمين العالم جاعلا فرقا بين التعبير الأدبي وسر التعبير الأدبي (كطرائق السرد أو كفن السرد) بقوله: "فقد نجد في الهيكلية (البنيوية) رغم مغالاتها الشكلية ورغم إغفالها لجانب الدلالة والمعنى في العمل الأدبي والإنساني عامة، إمكانية اكتشاف الكثير من أسرار التعبير الأدبي والإنساني"[3]، أي كيف نقول وليس ماذا نقول، وليس للكلمة أو المادة التي تحتل حيزا بنيويا الأهمية قبل جمالية الأسلوب الفني أبدا، وها هو تزفيتان تودوروف الفرنسي البلغاري يكتب منذ سنوات قليلة «الأدب في خطر » مطالباً بعودة الروح إلى القراءات الانطباعية التي تجمع الناس حول الأدب ولا تنفرهم منه[4]

---

[1]. المرجع نفسه، ص 211.

[2]. رولان بارت وجيرار جينيت، من البنيوية إلى الشعرية، ترجمة غسان السيد، دار نينوى، دمشق، ط 1، 2001، ص 19.

[3]. محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط1، 1985، ص 11.

[4]. عمر الفاخوري، الفصول أربعة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، د.ت، ص12.

نخشى أنّ ما شاب المناهج البنيوية من غموض وما تولد عنه من أزمة لا ينفصل عن غموض وأزمة الفكر الماركسي المذهبي نفسه، وأزمة هذا الأخير لا تنفصل أيضا ـ بنظري ـ عن فكرة صراع الشر ضد الخير. وسيفهم معنا القارئ لماذا شغلت البنيوية مؤسسات ونخب الأنظمة الماركسية أكثر من غيرها بل راحت تدافع عنها بكل قوتها، إنه المذهب الذي قام أول ما قام على وعي شرقي بفكرة الأنا والآخر وهو وعي نفسي لوجود الآخر الغربي المتقدّم عليه (أو الغني) أي تقديم فكرة الذات والآخر لوجود خلفية نفسية لم تهضم معايشة تقدم الآخر وتراجع الأنا تاريخيا، وفي محاولة المذهب الاشتراكي اقتصاديا والفكري عقيدةً ماركسية وكأنه لابد لإثبات ذاته من إقصاء الآخر إقصاءً كليا (وهي البذرة التي ستكون سببا في زواله) ففكرة الجدلية المادية جاءت لتقدم لنفسها ـ بالطبيعة البشرية ـ موازاة مع تفحيم المقولة العقلانية الرأسمالية الحرة لإلغائها كما ألغى الفكر الديني الإسلامي الآخر بإطلاقيه تامة، وكلمة حر/ ليبرالي هذه لم تفهم فهما جيدا لدى رواد هذا المذهب الماركسي في نظري، وجوهرها هو نفس جوهر الماركسية، وهي المقولة التي تقول بقدر ما تعمل (تنتج) تأخُذ، اهتدت إليها بما يقابلها عقلانيا أيضا وهي فكرة صراع الطبقات أو الجدلية المادية وما أتت به من مبادئ عقلانية هي نفس ما جاءت به الرأسمالية الليبرالية وهي بقدر ما تعمل (تُنتج) تأخُذ.

إذن الإضافة العقلانية التي جاءت به الماركسية عن الرأسمالية لم تكون إلا الجاهزية في الطرح المعارض، فتحْتَ خلفية الأنا المتعالي تُولَد أيديولوجية المذهب وتُسبَّق أصحابَها وتُعلي من شأنهم؛ أي جاءت باصطفائية جديدة تقوم على الحرص على أيديولوجيا الذات* بقدر ما تعطِي تأخذ لكن بتقديس المذهب وبممالأة الذات وتملقها؛ يعني المفروض مقولة بقدر ما تعطي تأخذ لا يُكمِّلها إذا ما نَقُصت غير الطرد والعزل كونه إجراء منطقي وعقلاني وديمقراطي وعادل في نفس الوقت حرصت عليه الرأسمالية (وهي نفس العدالة التي يتغنّى وما زال يتغنّى بها هذا المذهب كثيرا لكن منكّهة ببهارات الذات دوما) لكن في حالة الماركسية إذا ما نَقُصت المقولة كأن لم يعطي الأستاذ الجامعي عملاً ولا إنتاجا يستحق عنه راتبا ضخما يتقاضاه شهريا فيلجأ إلى التغطية عن النقص في العطاء/العمل بالتملق والممالأة رتبة لرتبة أعلى منها، تقف ذاتية هذا المذهب الذي وُجد أصلا كرد فعل تشنجي عصبي غير مدروس دراسة عقلانية من شأنها وضع أيديولوجيا العقل المرتبطة بهما عندنا بمعشر الماركسيين وما تبقى منهم من شيوعيين ويتوبيته Utopique المرتبطة بالأصوليين في مكانهما الطبيعي بالنقد أي عزلهما عن خدعة أو وَهْم العقلانية التي يتشدقون بها، يجدُر الذكر "أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت قامت بتوجيه انتقادات جذرية وعميقة للمفاهيم والقيم التي تأسست على العقلانية والحرية والتقدم العلمي والتقني وما ارتبط بها من نزعات وضعية وعلموية وتقنو علموية"[1]، يقصد بالعلموية العقل المثبط أيديولوجيا مذهبيا (الماركسية) وماديا (العقل الأداتي

* . "(..) وليس غريب أن تترسخ النرجسية الذاتية بوجهيها النقيضين: عبادة الذات والعدوانية على الآخر (..) ولكن ما هو أهم هو منهج العقل في تعامله مع الذات ومع الآخر، أي التزامه منهجا نقديا إزاء فكر الذات والآخر لكي يكون الحصاد دعامة تطوير للفكر وللفعل الغربيين (..) ذلك أن الفريضة الغائبة في حياتنا يجسدها غياب العقل النقدي وغياب قراءة الآخر كمرآة عاكسة لحالة الذات.." ينظر جي جي لارك، التنوير الآتي من الشرق، عالم المعرفة، العدد 346، ديسمبر 2007، ص9.

[1]. كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1،2010 ، ص9.

الفرنسي) وهي ذاتية للأسف تستثمر ومازالت فيهما معا بمقولة تقع في هذا المضمار، وهي ملتبسة بمقولة قيّمني في النظام المؤسساتي أو في النظام الأدبي العام وهو يريد بها معنى مجازي وهو امدحني بدون عمل أقدمه، ولم يكن يمضي في هذا السلوك لوى افتقاده للقيمة الفنية المعدّلة في تلك القيمة الأداتية.

الخاتمة:

هل خلا يوما مفهوم البنية وهندسة المكان والانسجام والاتساق، لا بل حتى رفع القلم لخط جملة على الورقة من الفن؟ إذن ما ضر القوم يجابهون القيمة الفنية في اللغة العربية وأدبها مجابهة فيها عدم وعي بتداخل السياق الديني بسياق الأبداع اللغوي الفردي؛ فصحيح أن تراث اللغة العربية الجمالي مدين للقرآن والسنة لكن يستطيع المتطبُّع من الأفراد على مسكوكاته المجازية والبلاغية توظيفها توظيفا حياديا بعيدا عن المضامين الدينية، إذن تبقى فرضية الخصاصة الفنية العائدة للتطبُّع على اللسان العربي/جماليات العربية، وهي غير جماليات اللهجة واللغة الفرنسية لأن هاتين اللغتين متحولتين، خصاصة تستعين بالعلمية إيهاما وتتحالف مع قيم الأيديولوجيا بكل أنواعها والتي تُضاد القيم الفنية كما قلنا جدليا وهذا من أجل مكتسبات وقيم الذات.

البنيوية التي أهملت السياقات التاريخية جاءت على أنقاضها وتلاشت رويدا رويدا تحت ضربات رياحها، هذه الرحلة الإبستمولوجية في الفكر النقدي الأدبي المعاصر من خلال البنيوية لم يتفطن إليها النقاد المحسوبين على النقد العربي إلّا بعد خروجهم من تحت تأثير نشوة الانبهار بالفكر البنيوي مؤخرا انبهارا من ليس له أصل ولا فصل يرجع إليه يقيه من عمى البصيرة، وهو في هذه الحالة لا يمكن أن يكون غير التراث الأدبي السردي والنقدي الأصيل الشاهد كما يشدد عليه كمال أبو ديب بقوله:" وسأتخلى هنا عن فضيلة التواضع التي أنا واثق أن العالم العربي لا يقدرها على الإطلاق لأقول: إن هذه التنمية (يقصد تنميته لمنهج بنيوي خاص به!!) وصلت لمرحلة تجاوزت بدرجات كثيرة جدا ما أنجزه الفرنسيون أو ما أنجزه الدارسون الأوروبيون.

بالوصف والتحليل التاريخي المقارن أجلى بحثنا عن عدم استيفاء مدونة الجزائر النقدية الأكاديمية خاصة والمغرب عامة بشرطي المناهج البنيوية ـ المتطورة عن المناهج الشكلية والألسنية ـ الأكثر من ضروريين لجعلها مناهج لا يعلى عليها في النقد الأدبي الأكاديمي وهما: أولا تسبيق أو مزامنة على الأقل للمعرفة باللغة العربية وآدابها سياقيا؛ أي نحويا ومعجميا وبلاغيا حتى لو تطلب الأمر فرزا (بالمعيارية، أو اطلاق أحكام القيمة كما تصطلح عليه المناهج البنيوية) للسّمين منها من الغث، أي الاطّلاع المُقنع بتراثها دون بُغض وثانيا المساواة بينها وبين المناهج الأخرى، لا إكراه في النقد فقد تبين الغي من الرشد فيه، ولعل محاولات البنيوية تجنب المثالية أسقطتها لاريب في أيديولوجية الاغتراب الصوري، ولعل إدراك المغاربة لها بقي لغويا ألسنيا ولم يطرح إشكالية الأدب بحكم أن المدونة الأدبية لديهم هزيلة مجانبة للجماليات التي تنبض بالخيال والبيان العربي المخلص في جزالته وبلاغته لتراثه، والتي من شأنها وحدها أن تجلي عمق معرفي ومضامين يمكن إدراجها في خانة الأدب نثرا وشعرا.

وبالنتيجة، فإنه برغم كل ما لحق من الفكر/النقد البنيوي في العشرين سنة الأخيرة من ضربات موجعة، ضربة تلو أخرى حتى غدا يعيش سنواته الأخيرة أمام النقد الثقافي وتحليل الخطاب ونقد جماليات الاستقبال

والنظريات اللسانية الحديثة إلا أن أصحابه بجامعتنا "الأم" مازالوا متعصبين لمن يحملون إبداعا وذوقا للأدب في أنفسهم، النسبة القليلة تعلم ذلك وتتعصب للعلم من هاجس يعتريها ضد القيم الدينية، والنسبة الأكبر تعلم وتتعصب ضد البلاغة العربية بالتماس هاجس الجهوية أي لديهم هاجس جماليات التطبع مِن بلاغة وفصاحة، والتي قد تكون إذا ما اقترنت بالإبداع أو تذوق لمسة الخيال الفني قِمّة ما يميز الأدب العربي (وهي كلها غير جماليات الشكل أو جماليات الوظيفة الشعرية في المناهج البنيوية) كون أن المتمكنون المتذوقون للأدب أناس ريفيون بدويون سنة الله في خلقه كما أكدته نظرية القواعد التوليدية.

إذن موقع الأيديولوجيا من المناهج النسقية هو موقع الحلقة الوسطى بين حلقتي العقل والشعور في أي سلسلة CHAÎNE، ومن وعاه وعى كل خصوصية للأدب ونقده كظاهرة إنسانية، فعمل على فك إزارها (عقدتها المحكمة) المزاوِجة بين العقل والشعور بين التمثل والتماهي، ومن لم يعه استمر في أيديولوجيته متوهما أنه يمارس الحداثة أو يقف ضد التقليد وأحكام القيمة جدليا.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الكتب:

1 . بول ريكور، البلاغة الشعرية الهيرمينوطيقا، أوان، العدد 9، فبراير 2005.

2. بول ريكور، فلسفة اللغة، ترجمة علي مقداد، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1979.

3. جي جي لارك، التنوير الآتي من الشرق، عالم المعرفة، العدد 346، ديسمبر 2007.

4. رمضان الصباغ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار الوفاء، الإسكندرية، ط 1، 1997.

5. رولان بارت وجيرار جينيت، من البنيوية إلى الشعرية، ترجمة غسان السيد، دار نينوى، دمشق، ط 1، 2001.

6. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1989.

7. عبد العزيز برهام، مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديما وحديثا، ج1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د.ت.

8. عبد القادر المهيري، العربية بين الاستقرار والتطور، مركز الملك عبد الله بقن عبد العزيز الدولي، الرياض، ط 1، 2014.

9. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 2000.

10. عماد محمد، اتجاهات الصفحات الأدبية في الصحافة المصرية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي صحيفة الأهرام نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، 2010، من المستخلص.

11. عمر الفاخوري، الفصول أربعة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، د.ت.

12. غانم هنا، النزعة العقلية وأثرها في حركة التنوير، عالم المعرفة، المجلد 29، العدد 3، يناير ومارس 2001.

13. كارلوني وفيللو، تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعيد يونس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط 1، 1963.

14. كمال بومنير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010.

15. ليونار جاكسون، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، ط 1، 2008.
16. محمد بن عبد الله بلعفير، البنيوية النشأة والمفهوم، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 4، العدد 15، سبتمبر .2017
17. محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2014.
18. محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الحقيقة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 2، 1996.
محمد علي الخولي، علم الدلالة (علم المعاني)، دار الفلاح، الأردن، 2001.
19. محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض والهزيمة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط1، 1985.
20. محمود الضبع، الرواية الجديدة قراءة في المشهد العربي المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010.
21. نعوم تشومسكي، اللغة والعقل، ترجمة إبراهيم مشروح ومصطفى خلال، دار تيمنل، مراكش، ط 1، 1990.

2. مواقع إلكترونية:

* . جاسم باقر محمد، الأيديولوجيا والسلطة السياسية، موقع الحوار المتمدن، 11/06/2005، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=50612